قراءة في كتاب

اللسانيات النصيّة : لجان مشال آدام

عمر بلخير

تـــقـــديم

من بين الذين عكفوا على تناول النصوص، وقوفا على الدراسات التداولية التي أخرجت النص من عزلته وجعلته نتاج تفاعل مستمر مع عوامل السياق، جان ميشال أدام و ميشال كومبيت وبولْ برونكارت و هيرلدنيرايش وجورج كلايبر وغيرهم، إلا أن ما شد انتباهنا، وجعلنا نتبنى بعض إجراءاته وجل ما توصل إليه الأستاذ جان ميشال أدام(1)، النتائج التي صاغها في كتابه(2) :

La linguistique textuelle : des genres de discours aux textes

في الفصل الذي عنونه : « التداولية اللسانية والنصية »، والذي حاول فيه أن يقنن جل أعماله في هذا الميدان منذ السبعينات من القرن الماضي، أي منذ البدايات الأولى، كما يقول هو، لما نشره هو وبعض زملائه الفرنسيين أمثال Charolles, Combettes في مجلة Pratiques الفرنسية، مـــرورا بمـــا أصـــدره وهو في سويسرا، و أن يضع أيضا معالم لنظرية تداولية تتناول النص موضوعا للدراسة.

نشير قبل ذلك إلى أن جل النظريات التي يمكن إدراجها ضمن لسانيات النص، ترى أن الجملة لا تشكل في حال من الأحوال الوحدة القاعدية للتبادلات الكلامية والخطابية، بل تعتبر النص هو الوحدة التي يتم فيها التبليغ والتبادل. ومن هنا فإن النص قد يكسب انسجامه وحصافته من خلال التبادل والتفاعل، ويتجاوز إطار الجملة الملفوظ للاهتمام بأنواع النسيج النصي الناتجة عن ممارسة المتكلمين الكلامية.

و لتتم هذه الممارسة على أحسن وجه، ينبغي أن توفر لدى المتكلمين « الملكة النصية » التي تمكنهم من إنتاج النصوص وفهمها بصفة متسقة ومنسجمة.

يتساءل جان ميشال أدام عن إمكانية أن تكون اللسانيات النصية هي ذاتها التداولية النصية، مستدلا على ذلك بأن المصطلح Pragmatique يتشكل من Pragma، وهو ذو أصل إغريقي يحمل معنى الفعل Action والمتكلمون يتمرسون باللغة فعليا عن طريق النصوص لا الكلمات والجمل. و ما يؤكد ذلك ما ذهب إليه اللساني شارل بالي في أن اللغة هي وسيلة في خدمة التفاعل (inter)action. لذلك إذا كانت غاية التداولية هي دراسة هذا البعد من الخطاب، و إذا كان هذا البعد، كما حددناه سابقا، لا يتم إلا بالنصوص، وجب إذن أن تكون النصوص هي موضوع التداولية(3).

و يذهب جان ميشال أدام في تحليله لهذا المصطلح إلى النظر في استخدامه لدى بعض اللسانيين و الفلاسفة أمثال فريديريك نيف و أمبرتو إيكو و فرانسيس جاك و جان ماري شافر و جاك موشلر وروبول، وهي استخدامات لا تتناسب تماما مع منظوره له، نظرا لكونه اتخذ مناحي عديدة ابتعدت عن المنحى اللساني البحت، فمنهم من أضفى عليه صبغة فلسفية، و منهم من أعطاها صبغة معرفية Cognitive، و منهم من إقترب كثيرا من المنحى اللساني بدراسة الأفعال الكلامية، و الاقتضاءات Présupposes و المبهمات، من هؤلاء سورل و أوستين و ديكرو.

اللسانيات التوجيهية ؟

أورد جان ميشال أدام أثناء تحليله لما كان يعرف باللسانيات النصية، تصور أحد المختصين في هذا الميدان، هو الباحث فاينراش الذي جاء بمصطلح اللسانيات التوجيهية Linguistique instructionnelle، وفي تعريفه[4] **لها** يشير إلى أن النظرية النحوية تقتضي مفهوما حواريا للغة، فالنموذج الأساسي للتبليغ والتواصل هو نموذج تبادلي بين متكلم (أو مؤلف) ومستمع (أو قارىء). ويندرج الدليل اللغوي، ضمن هذا التواصل الحواري، بكونه مقطعا نصيا، يفرض فيه المرسل على المتلقي أن يتبنى موقفا أو سلوكا معينا. انطلاقا من هذا التصور، يعتبر الدليل اللغوي فعلا توجيهيا في وضعية خطابية، فاللسانيات التي تتوافق مع هذه النظرية يمكن تسميتها باللسانيات التداولية، أو اللسانيات التوجيهية.

و قد تبنى عدد من اللسانيين هذا التوجه **التوجيهي للنظرية اللسانية**، الأمر الذي جعل بعض اللسانيين منهم Charolles، يميز بين ما أسماه المصاحبات التركيبية Solidarités syntaxiques ذات الأبعاد النصية الضيقة، والارتباطات الخطابية Connexions discursives كالضمير العائد والروابط Connecteurs، وصيغ التقديم ...إن العلاقات الجامعة بين هذه الارتباطات ليست بنوية أو محلية (ضمن الجملة الواحدة) بل تأويلية وحسابية.

لا تشكل العلامات التي تضمن هذه الارتباطات علاقات بين الوحدات المشكلة للخطاب. إنها تحتوي « توجيهات » تنحو نحو تأسيس لتمثيل محتواها. إنها إذن ذات طبيعة دلالية وتداولية أساسا.

إلا أنه يصعب علينا، انطلاقا مما سبق، أن نحدد التأويل الدقيق لأي نص انطلاقا مما أسميناه بالقصد Intention، و الوصول إلى التأويل المناسب للنص انطلاقا من مختلف التوجيهات التي يوفرها لنا هذا الأخير. وفي هذا الإطار يستعين أدام بما توصل إليه ديكرو من أن «الأهم في فهم النص ليست فقط تلك التوجيهات التي توفر للمتلقي، بل هناك أيضا تلك المناورات التي

يجبر بها هذا الأخير على التفاعل معها، زيادة على المسلك الذي يجبره على إتباعه(5).

و هذا ما أوصله إلى نتيجة أن المعنى التوجيهي يقصد منه بناء السياق الضروري لكل تاويل. ومن هنا، وتجنبا لأي تطرف، يقف أدام عند فرضية مفادها أن معنى الوحدات اللسانية غير متماسك وذو طبيعة غير موحدة. فهو لذلك، ينطلق من فرضية اللساني جورج كليبر الذي يقترح أن المعنى يخضع لنموذجين مختلفين مرجعيا : نموذج وصفي، وهو الذي يوحي بالشروط الضرورية والنموذجية التي لا بد أن تتوفر لدى أي كيان لكي يتحقق، والنموذج التوجيهي الذي يحيل إلى الوسيلة التي نصل بها إلى بناء مرجع خاص :

الأول إسنادي Prédicatif، والثاني يسهم في وضع آليات دينامية كالمبهمات والاستدلالات التي لا تشكل مميزات المرجع، بل هي حواجز أكثر ما يقال عنها أنها محكمة، الهدف منها بلوغ الغاية.

معنى ذلك أن كلمات مثل : الواجب والقضاء (Destin) والحرية... هي بنفس درجة استقرار كلمات مثل: الطائرات و الدبابات... لأن الكلمات الأكثر تجريدا تمتلك نواة يستطيع المتلفظون التمييز والفصل بينها، والسبب في ذلك يعود كما ذهب إلى ذلك باختين- إلى أن الذوات المتكلمة لكل مجموعة خطابية تستند إلى ركام غير متناه من السياقات للاستخدامات السابقة لكلمات اللغة.

فالأمثال والحكم مثلا تساهم في استقرار المواضع (المعاني العامة أو المشتركة) التي تؤسس معنى الكلمات لمجموعة معينة. بمعنى آخر، إن الخزان الشاسع الموجود فيما قد قيل le déjà dit، هو الذي يوفر المادة لمؤولي رموز اللغة(6).

الســـيـــــاق

يحدد جان ميشال أدام السياق في ثلاثة عناصر :

- **السياق الخارجي** C.extralinguistique : وهو السياق أو وضعية التفاعل الاجتماعي الخطابي، فهو إذن سياق وضعية التلفظ والتأويل.
- **المحيط اللغوي المباشر**: والمقصود به سياق النص المصاحب Cotexte والتخطيط النصي Schématisation textuelle
- **المعارف العامة المشتركة**، والمقصود بها التمثيلات الاجتماعية والمكتسبات الثقافية السابقة Pré- construction culturelles في التاريخ وفي الذاتية المشتركة.

إن الإقرار(7) بأن السياق بأنواعه الثلاثة يتدخل، في عملية التأويل التداولي للخطاب، يمكن أن تنجر عنه النتائج الآتية:

1- تحتاج الجملة دائما، مهما كانت، إلى سياق، يسند للجمل التي نجدها في كتب اللغة، واللسانيات سياقات تأويلية مبنية على قيم مبتذلة Stéréotypique تساهم في البناء التأويلي لها. إلا أننا نجد في الجمل التي تصدر ضمن مقام محدد، تأويلات تشير إلى معاني الأخبار أو الإشادة أو الوصف أو التهكم...

2- يتم اختيار السياق انطلاقا من سهولته و قربه إلى المنال: والمقصود بذلك أن أي بناء حصيف تقف إمكانية سهولته في اختياره كأفضل تأويل.

و يتحكم في هذه العملية مبدآن :

- يتوقف السياق الخاص، دوما، على السياق العام، ذلك أن وجود هذا الأخير يتوقف على غياب الأول.
- إذا توفر هناك النص المصاحب فلا حاجة لنا إلى البحث عن المقام الخارجي، لأن هذا الأخير يعتبر صعب المنال مقارنة بالعناصر المثبتة في الذاكرة.

- يتضمن السياقُ الذاكرةَ التي تعتبر واقعا تاريخيا و ذهنيا، إذ يفقد السياق وجوده خارج الذات، يكتسي السياق اللغوي و الخارجي و المعارف العامة وضعا تمثُّليا داخليا، تعالجه الذاكرة.

و ينطلق تأويل بعض الوحدات النصية مثل : المبهمات و الضمير العائد... من العودة إلى ما توفره لنا الذاكرة من معطيات و معارف.

" فالتفاعل اللغوي أو الخطابي يتوقف على ذاكرة التفاعلات و الأقوال السابقة و يسعى إلى بناء ذاكرة جديدة ستكون قاعدة لتفاعل لاحق(8) يعطي التشكيل(9) فكرة عن وضع الذاكرة كما يتصورها. إن الشكل كنموذج مختصر للتمثل الخطابي يسمح بتعبئة معارف جزئية و مفيدة مؤقتا. إنها لا تستدعي الذاكرة العامة للعالم و لا مختلف المعارف الموسوعية للذوات، و المخزنة منذ وقت بعيد، بل تكتفي بالمعارف الجاهزة في الذاكرة منذ زمن قريب، و تسمى هذه المعارف التي يشترك فيها المخاطبون شعوريا **بالذاكرة النصية**، أو الخطابية أو النصية المصاحبة contextuelle، و هي التي تسمح بحدوث التفاعل و تهدف إليه. و تعمل الأحداث المقامية الخارجة عن اللغة بتغذيتها باستمرار، بالملفوظات التي توحي إلى تلك الأحداث أو أنها تجسدها.

ختاما، نقول، إن التشكيل النصي هو نظام حركي و متحرك في الوقت نفسه، إنه يساهم في التدرج التسلسلي للنص ، وهو أيضا مستقر نسبيا إذ يسمح بالاستمرار، و التكرار و إعادة بعض العناصر المخزنة في الذاكرة " فالقول بأن الذاكرة الخطابية تتغذى دوما بالأحداث السياقية و السياقية النصية هو تأكيد على الميزة التدرجية و الجزئية لبناء النص للتمثلات الخطابية"(10).

الـــتنـــاص و السيـــاق

يضرب لنا ج.م.أدام مثلا لتثبيت العلاقة بين التناص و السياق مأخوذا من حادثة وقعت بفرنسا في جوان 1991، حيث اغتيلت امرأة تدعى السيدة مارشال في بيتها، و قد اتهمت الشرطة في ذلك الوقت مغربيا يدعى عمر

رداد كان يشتغل عندها، و قد وجد مكتوبا في باب قبو بيتها عبارة Omar m'a tuer (قتلني عمر) مع الإشارة إلى الخطأ الإملائي الذي جاء في الفعل tuer.

هذه العبارة استخدمها الطلاب الفرنسيون بقليل من التصرف عام 1997 ضد مشروع وزير التربية الاشتراكي في تلك الفترة وهو Paul Allègre لإصلاح المنظومة التربوية الفرنسية، فجاءت كالتالي Allègre m'a tuer (قتلني أليقر)، للإشارة فإن التدني في المستوى التعليمي الفرنسي سببه القوانين التي سنتها الحكومة الفرنسية الاشتراكية التي ينتمي إليها الوزير المذكور، و يوحي الخطأ الإملائي السابق الذكر إلى هذه الظاهرة، فربطت الذاكرة الجماعية الفرنسية بين خطأ إملائي جاء في عبارة كتبت إثر حادثة قتل، بوضعية المنظومة التربوية و الاجتماعية الفرنسية، فقد استوحى سياق التناص قوته من ملفوظ صدر (إقتراضا) من ضحية، و هو الملفوظ الذي أسنده الطلبة لأنفسهم معتبرين أنفسهم ضحايا للمنظومة السابقة الذكر.

اللسانيات النصية

بعدما حددنا فيما سبق المعالم النظرية التي يمكن أن تقوم عليها دراسة النصوص، و هذا انطلاقا مما حدده جان ميشال أدام، سنعمل فيما سيأتي على التحديد التدريجي لبعض العناصر الإجرائية – و هي عناصر سنستضيء بها في عملنا هذا – وفق الإطار الذي وضعه أدام و بعض الذين يندرجون ضمن تيار اللسانيات النصية التي يمكن أن تشكل ما سمي فيما سبق بالتداولية النصية.

يرى جان ميشال أدام(11)، أن الحديث عن مفهوم لسانيات النص هو بحث مؤسس على مجموعة من الافتراضات.

1- الحديث عن وجود ملكة نصية للذوات (متكلمة كانت أم كاتبة) أكدته أعمال من يدرسون في مجال تعليمية اللغات الأجنبية، و كذا بعض الأبحاث في مجال اللسانيات النفسية و المعرفية، فيما يتعلق بكيفية إنشاء السرد.

و قد حددت في **كونها القدرة المشتركة بين مجموعة معينة، على إنتاج النصوص و تحديد نحويتها و ملاءمتها المقامية acceptabilité**(12) **situationnelle.**

2- لا يمكن اعتبار النص سلسة من الجمل المتتابعة دون أن يربط بينها رابط، بل هي نتاج متجانس و متسق و مترابط، ذات بناء مزدوج :

- بناء أولي primaire : و هو نظام اللغة (البعد السيميائي).
- بناء ثانـــوي secondaire : الإطار الخطابي للغة (البعد الدلالي الموسع).

3- من أجل وضع وصف شامل للمفاهيم : الانسجام و الاتساق و الترابط، لا بد من تحديد مستويين :

- مستوى محلي (بنوي مصغر micro-structurel) للأدلة و الجمل و تتابع الجمل - إن اللسانيات النصية لا تستغني عن أوصاف اللغة النحوية و المورفولوجية، بل تستعين بها في البنينة الداخلية و الخارجية للجمل structuration intra et inter-phrastiques .

- مستوى أشمل (مستوى بنوي أعلى macro-structurel)، يشمل نماذج من الترتيبات المقطعية من جهة، و المعنى ضمن المقام من جهة أخرى، المقصود بذلك بنية النص الدلالية العليا أو الموضوعية، والأفعال الكلامية الشاملة macro actes de langage، التي تتجلى في شكل نصوص أو مقاطع نصية باعتبارها تناسقا تداوليا، على خلاف الانسجام المنطقي - الدلالي السابق.

4- الافتراض الرابع يقتضي تحديد انسجام النص باعتباره انسجاما تفاعليا، معنى هذا أنه يتعين على اللسانيات النصية أن تشمل جانبا منهجيا يدرس الأنماط الخطابية للتفاعل اللغوي، و هو الذي يتجسد في التداولية النصية.

بعد هذا التحديد الشامل لما يمكن أن يشكل مفهوم لسانيات النص أو اللسانيات النصية التداولية، نستطيع أن نحدد ماهية النص على أنه ذلك الخطاب الذي يسمح بإجراء تأويل ضمن مقام محدد، إنه-النص- نتاج

التفاعل بين المتخاطبين. من المهم أن نشير إلى أن النص المكتوب غير محرر بطريقة اعتباطية و دون مراعاة لأية غاية. إن الهدف من إنتاجه هو إحداث أثر في القارئ الافتراضي، و يكون ذلك في مقال صحفي أو طلب توظيف أو ترشح...

و تحدد شيرلي كارتر-توماس النص على أنه "تبليغ إطرادي communication occurrente يشترط أن تتوفر فيه سبعة مقاييس هي: مقاييس الانسجام و التناسق و مقاييس القصدية و القبول و الإخبار، ثم المقاييس المقامية و التناصية.

إن غياب أي من هذه المقاييس سيفقد النص خاصيته التبليغية و التواصلية و تجعل منه " لا نص non texte "(13).

تكمن أهمية هذه المقاييس في أنها تجسد العلاقات التبادلية، بين العناصر النصية البحتة و تلك العناصر ذات الأبعاد التداولية.

خاتـــمـــة

هذه إذن بعض القضايا التي حاول بها الباحث جان ميشال أدام أن يؤسس لمفهوم جديد في اللسانيات التداولية، يشكل، حسب ما صرح به في كتابه المذكور، استمرارا لعدد كبير من الأعمال التي طرحها باحثون من مختلف الجامعات الأوروبية و الأمريكية منذ عقود أمثال فاينرايش وفان دييك وهاليداي ورقية حسن وشارول وكومبيت وكينتش ولوندكويست وغيرهم... وهو أيضا حوصلة للتفاعل الحاصل بين مختلف الجهود المبذولة في مجال اللسانيات التداولية، من جهة، ولسانيات النص، من جهة أخرى.

الهوامش

(1)- باحث فرنسي بجامعة لوزان السويسرية، عرف باهتماماته الكثيرة في مجال لسانيات النص والخطاب، وبدراساته المستفيضة للصحافة المكتوبة : من أعماله Linguistique textuelle ، Les textes : Types et prototypes، Le texte narratif .....

(2)- صدر عن دار النشر Nathan الباريسية ، عام 1999.

(3)- J. M. ADAM, la linguistique textuelle... , P 119.

(4)- H. Weinreich (1979) : « les temps et les personnes », in poétiques, n°39 Paris, seuil, p 339.

(5)- idem : 122-123.

(6)- idem : p 124.

(7)- idem : p 125.

(8)- idem: p126.

(9)- في تصورنا المقصود بالتشكيل هو إمكانية تلخيص مختلف الخطابات و تقديمها في شكل نماذج أو مقاطع.

(10)- idem : P 127.

(11)- J.M ADAM (1986) : Dimension séquentielle et configurationnelle du texte, in «DEGRES », n° 46-47, été-automne.

(12)- تصنيف شيرلي كارتر – توماس عنصرا ثالثا و هو القابلية على التكيف Adaptabilité أو درجة المطابقة أو الملائمة السياقية.

(13)- Shirley- Carter-Thomas (2000) : La cohérence textuelle, pour une nouvelle pédagogie de l'écrit, l'harmattan, coll. langue et parole, P 18.